

التسامح الديني من منظور الإسلام بين التّأصيل الشرعي والتّكريس الواقعي

الأستاذ محمد بوالروايح

هناك حقيقة لا مناص من ذكرها وهي أن الإسلام صبغة الله، وكونه بهذه الصبغة الإلهية ينفي كل شبهة بالتعصب لمخالفه ضد مخالفه، فهذا النوع من التعصب الذي يهدم العلاقات الإنسانية ويأتي عليها من القواعد ويجعل الإنسان عدوا لأخيه الإنسان هو تعصب مذموم لا يجد له تبريرا شرعيا في الأدبيات الإسلامية الدينية والأخلاقية والتشريعية، والإسلام بمقتضى هذا المنطلق الإنساني يكره إلى المسلم التعصب مهما كان لبوسه، ويحبب إليه التقرب الذي ينزع عنه غائلة الغلو الذي أطبقت مصادر الإسلام وفي مقدمتها القرآن الكريم على شجب مسالكه، وبغض أتباعه، ونبد التعصب هو ما يعبر عنه بالتسامح الديني، الذي يدع فسحة للقاء بين الفرقاء وبخاصة الفرقاء الدينين في ظل القيم الدينية والحضارية والكونية المشتركة، التي تحفظ لكل أهل دين دينهم وفق المنطق القرآني {لكم دينكم ولي دين} ⁽¹⁾.

ولكن إذا كان التسامح الديني صبغة الإسلام ودينه ومسلكا إنسانيا من مسالكه فإن هذا التسامح بهذا السمت الإنساني الفريد قد أساءت إليه أو أبهتت صورته بعض الممارسات الدينية التي ادّعت وصلا بالإسلام، وكان من

(1) الكافرون 6.

آثارها الخطيرة ذلك الفصام النكد الذي أدخل المجتمع الديني الإنساني على وجه الخصوص في دوامة الصراع الديني، الذي عضد فكرة صراع الأديان والحضارات التي تبناها بعض حملة الفكر الغربي الشقاقي ومن دعا بدعوتهم في الشرق أو الغرب، وصورة التسامح الديني في الإسلام مضطربة بين منظور شرعي يؤصله ومنظور واقعي يخالفه، ومن هذا المنطلق المتضاد جاءت فكرة التسامح الديني من منظور الإسلام بين التأصيل الشرعي والتكريس الواقعي، إذ أن هناك مفارقة حقيقة قائمة بين التسامح الديني في الإسلام كفكرة بل كعقيدة مستقرة في الضمير والوجدان الإسلامي وبين التسامح كممارسة واقعية مستقرة في واقع الحياة الإسلامية.

1- التأصيل اللغوي لمصطلح التسامح الديني ومرادفاته :

جاء في "لسان العرب" ⁽¹⁾ : سمح السَمَاح والسَمَاحَة الجود، وسَمَحَ سَمَاحَة وَسُمُوحة وسَمَاحًا : جَادَ وَرَجَلَ سَمَحٌ، وامرأة سَمَحة من رجال ونساء سَمَاح وسَمَحاء فيهما، وَرَجَلَ سَمِيحٌ وَسَمِيحٌ وَسَمَاحٌ : سَمَحَ وَرَجَلَ سَمَامِيحٌ ونساء سَمَامِيحٌ، وقد عضد ابن منظور هذه المترادفات والمعاني المختلفة لمادة سمح ببعض الشعر، كقول جرير :

غلبَ السَمَامِيحَ الوليدُ سَمَاحَةً وكفى قريشَ المعضلاتِ، وسادها

وقال شاعر آخر :

في فتيةٍ بسُطِ الأكفِ، سَمَاح عند الفضال نديمهم لم يدثر

وأردف ابن منظور يقول : سمح لي بذلك يسمح سَمَاحَة، وأسَمَحَ وسَمَاح، وافقني على المطلوب، والسَمَاحَة الساهلة، وتسامحوا تساهلوا،

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سمح).

وفي هذا المضمار نجد محمد عبده ⁽¹⁾ يستخدم مصطلح التساهل الديني، في سياق حديثه عن التعصب الديني في الإسلام والمسيحية وكذا في معرض استشهاده ببعض ما قاله هانوتو ⁽²⁾ عن رسوخ عقيدة التسامح الديني في الإسلام، فيقول محمد عبده نقلاً عن هانوتو : "... إننا مدينون لهم بالتساهل الديني، ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يؤثر النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول : إن التمدن الأوربي يجد في طريقه في إفريقية لا سيما في شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الإسلام فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن بل ليس التساهل بكاف وحده".

وذكر ابن منظور في "اللسان" ورود مادة أسمح في الحديث القدسي : يقول الله عز وجل : اسمحوا لعبدي كإسماعه والإسماع لغة في السّماح، يقال : سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء وفي الحديث المشهور : "السّماح ربّاح" أي المساهلة في الأشياء تربح صاحبها، وسمح وتسمح : فعل شيئاً فسهّل له وسئل ابن عباس عن رجل شرب لبنا محضاً أيتوضأ ؟ قال : اسمح يُسمح لك ومعناه - كما يقول الأصمعي - سهّل يسهّل الله عليك وأنشد :

فلما تنازعنا الحديثَ وأسمحتَ

قال أسمحُ أسهلتَ وانقادت.

وتقول العرب : عليك بالحق، فإن فيه لمسمَحاً أي متسعاً ويضيف ابن منظور في إيراد معاني اسمح " وما يشتق منه. فيقول : وعودُ سمحُ بين

(1) محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (بدون تاريخ) ص 129، 130.

(2) مفكر فرنسي قال عنه محمد عبده إنه طعن في الإسلام من خلال ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في مارس 1902 متعلقاً بإفريقيا فردّ عليه محمد عبده ردّاً أدمغ به جهله بالأديان والتاريخ فرجع عنه واعتذر.

انظر: محمد عبده المرجع السابق، ص 129.

السَّامِحَة والسَّامُوحَة : لا عقدة فيه، ويقال: ساجَّةٌ ⁽¹⁾ سمحة إذا كان غِلظها مستوي النبتة وطرفاها لا يفوتان وسطه.

وتسميح الرمح : تثقيفه ⁽²⁾، ورمحٌ مسمَحٌ، ثقف حتى لان، والتسميح الشرعة، وقيل التسميح : السير السَّهل.

وفي الحديث : (اسمح يسمح لك) ⁽³⁾ أي سهل يسهل الله عليك وفي الحديث الآخر : (إني أرسلت بحنيفية سمحة) ⁽⁴⁾ أي ليس فيها ضيق ولا شدة، وفي الحديث أيضا : (أفضل المؤمنين رجل سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء) ⁽⁵⁾ وفي الحديث أيضا : (رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى) ⁽⁶⁾ وفي الحديث أيضا : (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) ⁽⁷⁾ وفي الحديث أيضا : (دخل رجل الجنة بسماحته) ⁽⁸⁾.

وتنبغي الإشارة إلى أن فعل "سمح" ومشتقاته لم ترد في القرآن الكريم، ولكن وردت بعض مرادفاته التي تؤدي معناه ⁽⁹⁾ ومن هذه المرادفات :

1- الصَّفَح : كما في قوله تعالى {وَدُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(1) السَّاج : خشب يجلب من الهند، وأحدثه ساجة [اللسان، مادة ساج].

(2) تثقيف الرِّمَاح : تسويتها، والثَّقَاف : ما تسوى أو تقوم به الرِّمَاح [اللسان مادة ثقف].

(3) رواه أحمد، 284/1 ورجاله رجال الصحيح إلا مهدي بن جعفر.

(4) رواه أحمد 116/6.

(5) رواه الطبراني في الأوسط، ورواته ثقات.

(6) رواه البخاري، وابن ماجه، والترمذي.

(7) رواه البخاري، وأحمد 236/1.

(8) رواه الإمام أحمد 210/3 ورواته ثقات ومشهورون.

(9) شوقي أبو خليل، التسامح في الإسلام "المبدأ والتطبيق" دار الفكر، دمشق، ط1، 1993 ص 42.

قدير} ⁽¹⁾ وكما في قوله تعالى أيضا : {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين } ⁽²⁾

قال الطبري (المتوفى سنة 310 هـ) في تفسير قوله تعالى : {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} : يعني جل ثناؤه بقوله فاعفوا فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم إرادة صدكم عنه ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم" ⁽³⁾.

2- الإحسان : ومن ذلك قوله تعالى : {...وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} ⁽⁴⁾ وقوله تعالى أيضا ك {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين } ⁽⁵⁾

وقوله تعالى : {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} ⁽⁶⁾

3- التفاهم والتعايش : وهذان اللفظان وإن كانا من المعاني غير الصريحة للتسامح إلا أنهما قد شاعا في الدراسات التي تتناول مستقبل العلاقات بين الأديان وفي مقدمته الإسلام والمسيحية ⁽⁷⁾ ، لعلة ظاهرة وهي

(1) البقرة 109.

(2) المائدة 13.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مجلد 1، ص 390.

(4) البقرة 83.

(5) البقرة 125.

(6) العنكبوت 46.

(7) هاني المبارك وشوقي أبو خليل الإسلام : التفاهم والتعايش بين الشعوب، دار الفكر، دمشق، ط1، 1997، ص11.

كون المسيحية والإسلام أقرب الأديان إلى تحقيق التفاهم والتعايش كما يدل على ذلك تاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية.

2- التأصيل الشرعي الإسلامي لقضية التسامح الديني :

إن التسامح الديني كما تقرره النصوص الشرعية في الإسلام مبدأ ديني، لأن عقيدة أو فكرة التسامح مع الآخرين على اختلاف قومياتهم وعقائدهم وألوانهم هو جزء من عقيدة المسلم فهو كصلاته وصيامه وجميع عباداته يقوم على إيمانه بالوحدة الإنسانية، لأن الخلق أو الناس كلهم عيال الله، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة دالة على خلق التسامح الديني في الإسلام، الذي يهدف إلى تحقيق غايتين اثنتين :

- الغاية الأولى : تحقيق الوحدة الإنسانية بين الأمم والشعوب :

و هذه الغاية تجليها آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى : {يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} ⁽¹⁾

يقول هاني المبارك : "لا أعتقد أن هناك نظاما أو دستورا في العالم يصل بإنسانية دعوته إلى هذه الدرجة من التأكيد على مبدأ إنسانية البشر جميعا، فالخطاب موجه في الآية الكريمة إلى الناس، وأية كلمة أوسع شمولاً في مدلولها الإنساني من كلمة الناس التي تشمل البشر جميعا على اختلاف ألوانهم وقومياتهم وأديانهم وطبقاتهم، ثم يأتي التأكيد على محو كل تمييز بينهم مهما كان لونه فالكل من أب واحد وأم واحدة، ثم تكاثروا فكانوا شعوبا وقبائل، ثم يأتي التأكيد أخيرا على الهدف من خلقهم "ليتعارفوا" وهل يكون هناك تعارف إلا بتفاهم وتعايش وتآلف وتسامح وتعاون وبصورة خاصة عندما يوضح الخالق العظيم صفة المتفوق عنده من هؤلاء البشر جميعا، إنه أتقاهم، وهل التقى إلا العمل الصالح الذي يقرب العبد من الله

(1)الحجرات 13.

ويحببه إليه، ألم يقل رسول الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله، وعيال الله كما ورد في نص الحديث، هم الخلق أو الناس جميعا دون حصر ولا تحديد" (1).

- الغاية الثانية : قطع دابر التعصّب الديني والعنصري واللساني، ومن التعصّب الديني ذم أهل الأديان الأخرى مع الأمر القرآني بالتعامل معهم وفق مبدأ التدافع : "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا" (2).

ومن التعصّب العنصري، الاعتداد بالجنس، مع الأمر القرآني بالاعتراف بالكرامة الإنسانية الشاملة : { ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا } (3).

وقد أورد إبراهيم أحمد الوقفي (4)، قوله تعالى : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا } (5). وأشفعها بما نقله عن الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية، الذي يقول : المعنى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بناه أرباب الديانات من أماكن العبادة، ولكنه دفع سبحانه فأوجب القتال، ليتفرغ أهل الدين للعبادة، فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع، واجتمعت المتعبدات، فكأنه قال : أذن في القتال، فليقاتل المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لانتصر الباطل على الحق في كل أمة، ولولاه ما بقي للدين من يذب عنه، ويدافع،

(1) هاني المبارك، المرجع السابق، ص 18.

(2) الحج 40.

(3) الإسراء 70.

(4) إبراهيم أحمد الوقفي، الحوار لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، دار الفكر العربي، ط1، 1993م، ص 80 وما بعدها.

(5) الحج 40.

فلولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد عليه الصلاة والسلام المساجد، والصوامع للرهبان، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود والمساجد للمسلمين، وقدمت مساجد أهل الكتاب ومصلياتهم في الذكر على مساجد المسلمين لأنها أقدم بناء، وسابقة للمساجد في الزمن؛ يقول إبراهيم أحمد الوقفي تأسيساً على ما قاله القرطبي: "وعلى هذا التفسير فالله تعالى ينهى عن الاعتداء على أماكن العبادة للأديان الثلاثة، فالمسلم يحرم عليه حرق الكنائس والاعتداء عليها بأي نوع من أنواع الاعتداء، وكذا اليهودي والنصراني يحرم عليهما الاعتداء على المساجد وإحراقها، وبذلك تكون الأديان الثلاثة السماوية مجمعة على تحريم الاعتداء على أماكن العبادة فلماذا إذن نشاهد بعض المسلمين يحرق كنيسة، وبعض المسيحيين يحرق مسجداً، إن من يقدم على هذا الفعل الشنيع المحرم في جميع الأديان السماوية مخالف لتعاليم دينه، ومتعدّ على بيوت العبادة، ومثير لفتنة يحرمها الله تعالى ويجرمها القانون، فلو أن مسلماً كان ملتزماً بأحكام دينه لما فكر مطلقاً في إحراق كنيسة، وكذا لو أن نصرانياً كان ملتزماً بأحكام دينه لما فكر في إحراق مسجد" (1).

إن حرمة الأديان في الإسلام كحرمة الإسلام، وفي ذلك يقول مصطفى السباعي (2):

"إن كل الأديان تأمرنا بالرفق وتحث على الحب، وتنتهى عن الخصام، وتمقت القسوة والأذى وهي بذلك عامل من أكبر العوامل في نشر السلام بين الناس وقيام الثقة والتعاون بينهم في شؤون معاشهم ومعاملاتهم، وأدياننا الكبرى في الشرق العربي والإسلامي عند هذا الغرض في كثير من آدابها وشرائعها، وحسبك من المسيحية قول المسيح "أحبوا أعداءكم،

(1) إبراهيم أحمد الوقفي، المرجع السابق، ص 80.

(2) مصطفى السباعي، أخلاقنا الاجتماعية.

وباركوا لآلانيكم⁽¹⁾ أما الإسلام فلا تكاد تحصى آيات القرآن في الحب والصّفح والرحمة وعمل الخير للناس، ولا تكاد تحصى الأحاديث التي تحث على ذلك، وترغب فيه، وحسبك من الإسلام قول الله تبارك وتعالى في وصف عباده المؤمنين : { وعباد الرّحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما }⁽²⁾. وقول الرّسول - صلى الله عليه وسلم : " الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله " ⁽³⁾.

ويضيف مصطفى السباعي فيؤكد ضرورة التعاون بين الأديان بما يخدم القضية الإنسانية الجوهرية المشتركة فيقول : " وهكذا تتعاون دياناتنا على اطمئنانهم جميعا على حرياتهم وأموالهم، وأعراضهم وكفائتهم بل إن الإسلام ليقرر أن اختلاف الناس في أديانهم وعقائدهم أمر طبيعي من ضروريات الحياة : { ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم } ⁽⁴⁾، وكان من أبرز أخلاقنا الاجتماعية تعاوننا على بأساء الحياة وضرائها مع اختلاف أدياننا وعقائدها حتى اشتركنا في كثير من الحروب جنبا إلى جنب، نقاوم الغزاة ونطرد المعتدين، ولست أرى في التاريخ أروع من قول شيخ الإسلام ابن تيمية حين جاء إلى أمير التتار يطلب إليه إطلاق سراح الأسرى، فأجابه الأمير التتاري إلى إطلاق سراح الأسرى من المسلمين وحدهم دون المسيحيين واليهود فأبى شيخ الإسلام وقال : " لا بد من إطلاق سراح هؤلاء جميعا أيضا، فإنهم أهل ذمتنا، لهم ذمة الله ورسوله، فأطلق الأمير سراحهم جميعا " ⁽⁵⁾.

وليس بعيدا عن هذا السلوك الإنساني الذي سلكه ابن تيمية مع أهل الذمة من المسيحيين السلوك الإنساني الرفيع الذي يبرهن على أعلى مراتب

(1) متى 5 : 44.

(2) الفرقان : 63.

(3) رواه البزار.

(4) هود : 118.

(5) إبراهيم أحمد الوقفي، المرجع السابق، ص8.

التسامح الديني، الذي سلكه الأمير عبد القادر الجزائري، حينما تدخل مع ألف من رجاله لإخماد فتنة 1860 م في بلاد الشام وإنقاذ المسيحيين، وهو الموقف الذي جعل الأمير يتبوأ بعدها مكانة مرموقة في المجتمع الأوروبي، الذي أطبق على تمجيد الجانب الإنساني للأمير وتسامحه ⁽¹⁾.

ولسنا ندعي نحن المسلمين أننا أولى بخلق التسامح الديني، بإطلاق مبخس لحق الآخرين، فإن في المسيحية، كثيرا من النصوص التي تحث على التسامح، كما يظهر ذلك في مواضع من إنجيل متى ما نصه :

- "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيك وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أولاد أبيكم الذي في السماوات، فإنه يشرق شمسك على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين، لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فأَيُّ أجر لكم ؟ أليس العشّارون يفعلون ذلك أو إن سلّمتم على إخوانكم فقط فأَيُّ فضل تصنعون ؟ أليس العشّارون أيضا يفعلون ذلك ؟ فكونوا أنتم كامليين، كما أنّ أباكم الذي في السماوات كامل" ⁽²⁾.

- سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء، أيضا، ومن سخرك ميلا فانهب ميلين اثنين، من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه" ⁽³⁾

(1) عبد الجليل التميمي "الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق [المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام 1516 - 1939 كلية الآداب، جامعة دمشق مطبعة الطراييشي 1979، ج2، ص 423.

(2) متى 5 / 44-48.

(3) متى 5 / 38-42.

- "إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوي، وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضا زلاتكم" (1)

فهذه النصوص الإنجيلية بريئة من الشطط الذي مارسه الكنيسة المسيحية، في حق المسلمين والمسيحيين واليهود في فترة التسلط الكنسي، حتى إن وثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني 62-1965 م، تدعو صراحة إلى ضرورة الاعتراف بمظالم الماضي التي ارتكبتها الغرب ذو التربية المسيحية في حق المسلمين" (2).

ويمكن - بناء على ما ذكره إبراهيم أحمد الوقفي ومصطفى السباعي من التسامح الذي يتعامل به الإسلام مع أهل الأديان الأخرى من تحديد أهم مجالات هذا التعامل :

أولا : مجال العقيدة : فمن المفاخر التي يزهو بها الإسلام أنه أمر أتباعه بتصديق جميع الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يتهجم ولم ينل من واحد منهم، ولم يفرق بينهم وبين سائر الأنبياء فقال : (قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (5).

يقول مصطفى الرفاعي : "وهكذا فإن الإسلام قد قرّب ما بينه وبين أصحاب الديانات الأخرى من الأبعاد وجعلهم مع نفسه صفاً واحداً فقال : { إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون } (3).

(1) متى 6/ 15.

(2) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ص 7.

(5) البقرة 136.

(3) البقرة 62.

ثانيا : مجال الحياة : إن استقراء التاريخ يسفر لنا عن رصيد ضخم من الاحترام الذي حظي به الذميون عند المسلمين ومن ذلك :

أ- أوجب لهم الإسلام من الحقوق ما أوجب للمسلمين وجعل عليهم ما عليهم⁽¹⁾.

ب- إن الإسلام فرض على أهل الذمة دفع الجزية وأسقط عنهم في المقابل واجب حمل السلاح وجعل على الدولة واجب الدفاع عنهم والمقاتلة في سبيل أرضهم وذراريهم.

ج- أباح الإسلام لأهل الذمة التمتع بما هو حلال عندهم، وإن كان هذا الحلال حراما عند المسلمين كالخمر والخنزير، ولم يفرض عليهم أدنى عقاب لذلك.

د- مكن الإسلام أهل الذمة من أن يشعروا بوجودهم العقائدي تمكينا واضحا، إذ جعل لهم الحرية في التخلف عن دعوة القضاء إن صادفت هذه الدعوة يوما من أيام أعيادهم.

هـ- أباح الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى أن يبنوا بيعهم وكنائسهم وأن يقيموا شعائرهم على طريقتهم الدينية، مع مراعاة العرف القانوني، أي عدم الاعتداء على سلطة الدولة في فرض القانون وممارسة الرقابة التي تكفل استقرار الدولة.

إن الإسلام أعطى مخالفيه الحرية الكاملة في الاعتقاد وهو بذلك يؤكد أنه دين عالمي سمته التسامح وعدم رفض الآخر لعدم قبوله عقيدة الإسلام، يقول شوقي أبوخليل : "الإسلام دين عالمي إنساني يقبل الآخرين في مجتمعه، ولا يرفض الآخر، ولا يصادر رأيه أو عقيدته، لذلك جعل أسسا

(1) مصطفى الرافعي، الإسلام نظام إنساني، مراجعة الشيخ حسن تميم، منشورات دار مكتبة، بيروت لبنان، ط 2 بدون تاريخ، ص 199-200.

ثابتة من صلب العقيدة، للتعامل مع الآخرين وأدبا للحوار معهم، وتسامحا في التعامل معهم" (1).

إن صفة التسامح التي أبداهها الإسلام تجاه أهل الأديان الأخرى، كما نصت على ذلك النصوص الشرعية كما ذكرت، هي التي جعلت جورافسكي يرجع سبب ظهور الدين الإسلامي وترسيخه السريع والقوي في آسيا وأفريقيا بصورة واسعة، وتقبله دون أية مقاومة، بل وبالترحيب في كثير من المناطق إلى عدة عوامل أهمها تسامح الإسلام إزاء القضايا المتعلقة بإقامة طقوس العبادة و حماية المسلمين الفاتحين أهالي تلك المناطق المفتوحة من اعتداءات وملاحقات أعداءهم إلى جانب استعمال المسلمين في دعوتهم خلال السنوات الأولى من الفتوحات اللغات المحلية بدلا من الإغريقية مستعنيين بأبناء جلدتهم من المسيحيين" (2)

إن التسامح الديني لغة يحسنها كل من تحررت نفسه من عدوى كراهية الآخرين، كما قال جون لوك (3) : "لقد أثبتنا أن رعاية النفوس ليست من اختصاص الحاكم، ما دامت سلطته تقتصر على وضع القوانين والإجبار على تنفيذها عن طريق العقوبات، لكن في وسع كل إنسان أن يمارس الإحسان (المحبة) تجاه إخوانه، وتعليمهم وتنبيههم وإقناعهم بالحجج الجيدة".

لقد طالب كونج - الذي تحدث عن الحرية الدينية في الإسلام - المسلمين بتسامح ديني عام ينص على حرية دينية عامة للمسلم وغير المسلم في الحقوق الإنسانية التي تسوي بين المسلم وغير المسلم في

(1) شوقي أبو خليل ن الحوار دانما، دار الفكر المعاصر، بيروت وحوار مع مستشرق، ص 54.

(2) انظر : جورافسكي، الكسي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد 215، ص 177، 178 وانظر أيضا، الصادق كورشيد مقال : "دعوة الإسلام إلى الحوار والتعايش والاعتراف بالآخر" أعمال الندوة (منزلة الإسلام بين القيم الكونية" مركز الدراسات الإسلامية القيروان 2005، 1992.

(3) جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمها إلى اللاتينية مع مقدمة مستفيضة وتعليقات عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1988، ص 85، 86.

الحقوق والواجبات، ويجلي هذا الموقف الإنساني محمد الشاهد (1) :
"وليس هذا الموقف جديداً على الإسلام، ومن يقرأ السيرة النبوية يجد أكثر
مما يحتاج للاقتناع بتسامح الإسلام مع غير المسلمين.

ويؤكد أحمد بن نعمان (2) الطابع السلمي للإسلام فيقول : "هذا وإذا
رجعنا إلى عصر النبوة نفسها فلم يحدثنا التاريخ قط أن محمداً - صلى الله
عليه وسلم - عاقب أو ضايق مسيحياً أو يهودياً بسبب ملته أو أمر أتباعه
بذلك على الرغم من أنه - صلى الله عليه وسلم - علم المسلمين أن
الإسلام يختلف اختلافاً جذرياً عن المسيحية واليهودية كما حدد عقيدة
المسلم بقواعد دينية واضحة منها قوله تعالى : { لا إكراه في الدين قد
تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك
بالعروة الوثقى لا انفصام لها } (3).

3- تطبيقات مذهب التسامح الإسلامي مع أهل الديانات الأخرى :

أ- الفتح الإسلامي السلمي للأقاليم المختلفة :

وتدل عليه وثائق تاريخية كثيرة مرتبطة أساساً بالفتوحات الإسلامية
يقول عبد الناصر العطار "ولقد فتح المسلمون مصر على يد عمرو بن
العاص ولم يحدثنا التاريخ أنهم طلبوا من المسيحيين ترك عقيدتهم أو أنهم
سعوا إلى تفويض المسيحية بل التزموا أمر نبيهم - صلى الله عليه وسلم -
الذي أمرنا بترك أهل الذمة وما يدينون" (4).

(1) السيد محمد الشاهد، المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، دار الأمين للطباعة، ط1، 2001، ص 187.

(2) أحمد بن نعمان، التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي، لماذا وكيف، شركة دار الأمة للطباعة، ط1، 1991، ص 220.

(3) البقرة 256.

(4) جريدة الأهرام القاهرية الصادرة بتاريخ 28/ 05/ 1989.

ب- اتساع رقعة الحوار الديني والعيش المشترك :

ويخص هذا الحوار الديني بالدرجة الأولى المسيحية والإسلام، وهذا رغم المعوقات والتراكمات التاريخية التي مازالت تعيق هذا الحوار وتجعله يسير بخطى بطيئة ومتعثرة أحيانا كثيرة، يقول المطران جورج خضر⁽¹⁾ : "إن الحوار الإسلامي المسيحي بات اليوم على مشارف من الفهم لم يبلغها في القديم، ... وفيما تبقى المحاولات خجولة هنا وهناك بسبب ميراث الألم التاريخي، إلا أننا نشهد أيضا قفزات في التخابط بعد أن أضحى اطلاع أحدنا على الآخر أكثر شمولاً أو أعظم عمقا من الماضي، بسبب هذا الهدوء الذي بلغته النفوس في توجُّها إلى الوحدة من بعدما ضاقت أو ذاقت من شدة التنافر ورهبة العزلة، قد تتعثر الخطى من حقبة إلى حقبة في هياج الشراسات، في صقع أو في آخر، بسبب احتدامات قد لا تكون متصلة بالجبهه الديني (المواجهة الدينية) مباشرة، ولكنّه التمازج بين منافع في الأرض واستكبار سياسي واستلهاً ديني يطوِّع للمنافع والاستكبار".

ج- تعزز جبهة مناصرة فكرة التنوع الديني والعقائدي :

وهذا بعد عهود من الإنكار والإلغاء تولى كبرها بعض دعاة التعصب الديني، وفي ذلك يقول جورج خضر : "... المحاولة ممكنة أي لتحقيق التقارب الديني وخاصة بين المسيحية والإسلام - في اعتراف بالمسيحية الخالصة عند المتحدث المسيحي واعتراف بالإسلام الخالص عند المتحدث المسلم، ورجاؤنا أن التقابل الفكري يساعد كلاً منا على قصد هذا الخلو، وذلك كله ممكن مع ما يبدو في التواجه متعذراً" ⁽²⁾.

(1) المطران جورج خضر رئيس أساقفة جبل لبنان للزوم الأرثوذكس، أفكار وآراء في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك، المكتبة البولسية، لبنان ط 2000، ص 59.

(2) جورج خضر، المرجع السابق، ص 76.

وفي مقابلة أجرتها مجلة العهد الأسبوعية ⁽¹⁾ مع حسين فضل الله حول التنوع الديني وإمكانية التعايش ردّ بقوله : "عندما نريد أن نتحدث عن هذه الفسيفساء الفكرية المذهبية السياسية فإن علينا أن نتحدث عنها في بعدين، البعد الفكري الحضاري والبعد السياسي المعقّد، فعندما ندخل للمسألة في بعدها الفكري الحضاري فإننا نعتبر أنّ التنوع الديني كما هو بين الإسلام والمسيحية واليهودية ... إنّ هذه الخطوط عندما تعيش في البعد الفكري فقد نجد أنها تمثل غنى الفكر وحركة حياة في المسألة الحضارية، لأنها تطرح خصوصيات متنوعة ولكل خصوصية عمقها وامتدادها الفكري على مستوى المسألة النظرية في الخطوط العامة وعلى مستوى التجربة المعرفية في التفاصيل، ولذلك فإنها يمكن أن تصنع لنا حركة ثقافية دينية سياسية تتصل بأبعاد تاريخية ولغوية ونفسية وفلسفية" ⁽²⁾.

وإن كان حسين فضل الله يتحدث عن خصوصية التنوع الديني في لبنان، إلّا أنّ ما قاله يمكن تعميمه على المدى والمجال الأوسع، ليشمل وضع المسيحية والإسلام في الوجدان الديني المسيحي والإسلامي هذا الوضع الذي يجب أن ينزع فكرة "الإلغاء الديني" إن صح التعبير التي قالت بها بعض الطوائف الدينية، من المتدينين المسيحيين والمسلمين، والتي أذكت عهوداً من الصدام بين المسيحية والإسلام.

ويجلي محمد حسين فضل الله فكرة التعايش الإسلامي المسيحي فيقول : "إن مسألة التعايش الإسلامي المسيحي تعني أن يحتفظ المسلم بخصوصيته الإسلامية كما يحتفظ المسيحي بخصوصيته المسيحية، ولكنهما يلتقيان على الأرض المشتركة، وعلى الكلمة السواء التي هي تعبير قرآني حي ⁽³⁾."

(1) في عددها بتاريخ 1993/1/8م.

(2) محمد حسين فضل الله، في آفاق الحوار الإسلامي، المسيحي دار الملاك، ط 1، 1994، م، ص 398، 399.

(3) محمد حسين فضل الله، المرجع السابق ص 400 وما بعدها.

4- التسامح الديني من حيث التكريس الواقعي : "مفارقة المبدأ للواقع"

يجب أن نعترف أن هناك مفارقة بين الصورة النظرية الوضيئة لفكرة التسامح الديني من منظور الإسلام، التي كانت لها تجليات وتطبيقات إلى عهود قريبة، وبين الصورة الواقعية الحالية للتسامح الديني، ومرد ذلك ليس إلى ضيق النصوص الدالة على التسامح، وخاصة في الإسلام، وإنما إلى ضيق النفوس، وفي ذلك يقول أحمد بن نعمان : ".... على أن المبادئ السماوية إذا لم تجد من يؤمن بها الإيمان الراسخ ويطبقها التطبيق الصادق والكامل، فإنها تبدأ في إفراز التعصب أو اللاتسامح بين أصحاب الملل، وعن بعض هذه الأسباب والظواهر التي تبذر التعصب في القلوب الضعيفة والنفوس الخفيفة، التي لا تعرف حدود التفريق بين الدين واحترام الرأي الآخر والدين الآخر يقول عبد الناصر ما نصه : "إن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية ولا ينال من الذين نختلف معهم في الرأي، ولا حرج فيه، فالمسيحي أخ المسلم، والمسلم أخ المسيحي في الإنسانية كلهم لآدم وكلهم له كرامته الإنسانية مصداقا لقوله تعالى : {ولقد كرّمنا بني آدم} وكل إنسان ليس معصوما من الخطأ إلا الأنبياء وشعار العقلاء أن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب (1).

إن التكريس الواقعي لقضية التسامح الديني من قبل بعض المتدينين المنتسبين إلى الإسلام، قد أبهت في الحقيقة صورة هذا التسامح كما ألمحت إليه النصوص الشرعية، فهذا الصنف من المتدينين أسأفوا إلى فكرة التسامح بين المسلمين من أتباع الملة الواحدة والقبلة الواحدة، ويقول أحمد بن نعمان : ".... وإذا كان هذا شأن الإسلام مع غير المسلمين، فمن باب أولى أن يكون التسامح هو السيد بين أبناء الملة الواحدة وأصحاب القبلة الواحدة، ومهما اختلفت أسماء مذاهبهم ولكن الواقع المعيش في حياة

(1) أحمد بن نعمان المرجع السابق، ص 221.

المسلمين ليس في هذه الصورة - المفترضة - لأسباب لا تعود إلى الدين الحنيف في ذاته وإنما تعود أساسا إلى جهل وتعصب أطراف كل مذهب ديني على حدة، مما جعل من تعدد المذاهب أحيانا نقمة على المسلمين بدلا من أن يضل رحمة بهم⁽¹⁾.

وقد أوصل هذا التعصب المقيت إلى المواجهة الحاسمة غير المبررة وغير المحمودة، وفي ذلك يقول أحمد بن نعمان : "... فالإصلاح الموسوم بالتسامح الداعي إلى السلام قد تخضبت دماء أبنائه بدماء بعضهم بعضا نتيجة الخلافات المذهبية المسيسة وضيق الأفق الذي حلّ بهؤلاء المتعصبين، والذي انتهى في كثير من الأحيان إلى الاقتتال الدامي بين الأشقاء المتجهين بوجوههم وقلوبهم نحو قبلة واحدة"⁽²⁾.

إن ضيق أفق الدين عند كثير من المتدينين هو الذي يؤدي بالضرورة إلى إبهات صورة التسامح الديني نتيجة للتكريس الواقعي لها، غير المتزن والمنضبط بالقواعد التي أقرها الدين، يقول إبراهيم أحمد الوقفي : "... ويوم ينقلب الدين مفهوما ضيقا يتميز بالحقد والعداء، ويبعث على النزاع والشحناء، وينتهي إلى الفتن وسفك الدماء، يومئذ يكون الدين قد تحول إلى طائفية زميمة، تندر بشر العواقب، وأوخم النتائج.

إن إساءة المسيحي إلى مواطنيه المسلمين أمر لا تدفعه إليه مسيحيته، وإنما تدفعه إليه طائفيته الجاهلة بسماحة المسيحية وأخلاقها، وإن إحراق المسلم لبعض الكنائس، أمر لا يدفعه إليه إسلامه وإنما يدفعه إليه جهله بالإسلام ومبادئه في معاملة غير المسلمين، وهكذا تنبعث الطائفية من الجهل، ثم تنمو وتترعرع في تربة الحقد والاستغلال"⁽³⁾

(1) أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 224.

(2) أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 224.

(3) إبراهيم أحمد الوقفي، المرجع السابق ص 82.

ويضيف إبراهيم أحمد الوقفي : "وإذا كان في تاريخنا بعض المآسي الدينية فليس مردّها إلّا إلى الطائفية المنبعثة من الجهل وإلى الطائفية المستثمرة من العدو، والدول الكبرى هي التي تؤجج نيرانها وكل دولة منها تؤيد طائفة وتمدها بالسلاح، حتى دمرت الطوائف بيوتها بأيديها، وشوهت جمال أرضها بجهل عامتها واستغلال زعمائها" (1)

إنه ينبغي الاعتراف بالمآسي الدينية الذي غدتها بالدرجة الأولى الطائفية الدينية المتعصبة، سواء تعلق ذلك بتاريخ الإسلام أو بتاريخ المسيحية مع الاعتراف أن هذه الصورة القاتمة التي سببتها الحروب الدينية لا تخلو من إشراقة ووقفة إنسانية، وفي ذلك يقول إبراهيم أحمد الوقفي : "إن التاريخ لا يزال يقف حتى اليوم موقف الإجلال والإكبار للذين أظهروا سماحة الإسلام في حكمهم وفتوحاتهم، كما يصب لعنته وسخطه واحتقاره على الذين قاموا بأشنع صور التعصب في انتصاراتهم وسيطرتهم، ... وإن الذين أنشأوا محاكم التفتيش لم يكونوا يمثلون سماحة الدين الذي يعتنقونه، وإنما كانوا يمثلون حقد المتدين الجاهل الذي لا يرى مكانا على الأرض لغير المتدينين بدينه" (2).

(1) إبراهيم أحمد الوقفي، المرجع السابق، ص 82.

(2) المصدر نفسه، ص 83.

